«بيان التنحي» وذاكرة الهزيمة:
مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي

عماد عبد اللطيف

مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، عدد ٣٠، ٢٠١٠

كانت هذه السطور هي أصعب ما كتبتُ في حياتي؛
فقد كانت مصر كلها على حد الموسى.
-- محمد حسنين هيكل (متحدثاً عن «بيان التنحي»)

لغة السياسة هي لغة الدفاع عمّا لا يمكن الدفاع عنه.
-- جورج أورويل

لدى كل أمة ذخيرة خطابية تصنع تاريخها وتشكل وعيها. وتتكون هذه الذخيرة من نصوص وكلام يشق طريقه إلى ذاكرة الأمة، ليصبح جزءاً لا يتجزأ منها. ويرتبط مثل هذا الكلام وهذه النصوص – في الغالب – بشخصيات استثنائية، وعادة ما يكون نتاج لحظات تاريخية بالغة الخصوصية؛ تكون فيها حواس الأمة كاملةً مهيأةً لتلقيه والانفعال به. ومن بين النصوص التي لا تزال حاضرة وفاعلة في الذاكرة المصرية والعربية المعاصرة «بيان التنحي» الذي ألقاه الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر إثر هزيمة يونيو ١٩٦٧.(١) وهو البيان الذي سيكون موضوع هذه المقالة.

تُحاجج هذه المقالة بأن صياغة «بيان التنحي» على المستوى البلاغي كانت ذات تأثير في إنتاج الاستجابات التي أعقبت إلقاءه، والتي تمثلت أوضح ما يكون في المظاهرات الهائلة الرافضة للهزيمة والتنحي معاً. وللبرهنة على ذلك، تنخرط الدراسة في تحليل تفصيلي لبعض أهم الظواهر البلاغية في البيان، مثل التلطيف اللفظي الذي ينتمي إلى المجال المعجمي والدلالي، والضمائر الشخصية وتحولاتها التي ترتبط بالتماسك النصي والمعنوي، والاستعارة التي تقع في قلب المجاز، وطرق أداء عبد الناصر للبيان صوتياً وحركياً. ولتفسير العلاقة بين صياغة البيان بلاغياً والاستجابات التي أعقبته، سوف أحلل عمليات إنتاج البيان وتوزيعه واستهلاكه، مستعيناً بتصور متكامل عن الحدث الخطابي، أقوم بتوضيحه فيما يأتي.

النص والمجتمع والممارسة الخطابية

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم تحليل بلاغي لـ«بيان التنحي»، يتعامل مع البيان بوصفه حدثاً خطابياً discursive event بالمعنى الذي رسخه نورمان فيركلف أهم مؤسسي التحليل النقدي للخطاب. وللحدث الخطابي وفقاً لفيركلف ثلاثة أبعاد هي: كونه نصاً، وممارسة خطابية، وممارسة اجتماعية.(٢) ويكشف هذا التقسيم عن العلاقات المتبادلة بين النص والممارسات الخطابية والاجتماعية؛ فالنص يمثل جزءاً من الممارسات الخطابية من ناحية والممارسات الاجتماعية الأوسع من ناحية أخرى. كما يكشف عن أهمية الممارسات الخطابية، بما فيها عمليات إنتاج الخطاب وتلقيه، في صياغة النص والممارسة الاجتماعية في الوقت ذاته. ولا بد أن يتجلى الوعي بأبعاد الحدث الخطابي المختلفة أثناء عملية التحليل. وقد وضع فيركلف إزاء كل بُعد من هذه الأبعاد مستوى من مستويات التحليل. المستوى الأول هو مستوى تحليل النص، ويدرس ملامح الخطاب اللغوية وتنظيم مكوناته الملموسة، مثل المفردات والتراكيب والتماسك النصي وبنية النص. أما المستوى الثاني، فهو تحليل الممارسات الخطابية؛ أي تحليل الخطاب بوصفه شيئاً يُنتَج ويُوزَّع ويُستهلك في المجتمع. ويرى بلومارت وبولكن أن مقاربة الخطاب بوصفه ممارسة خطابية تعني أنه أثناء تحليل المفردات والتراكيب والتماسك النصي وبنية النص يجب أن يتوجه الاهتمام إلى أفعال الكلام والتماسك المعنوي والتناص، وهي عناصر تربط النص بسياقه.(٣) وأخيراً، يقوم المستوى الثالث بتحليل الممارسات الاجتماعية؛ أي المؤثرات الإيديولوجية وعمليات الهيمنة التي يُعد الخطاب مظهراً لها.

سوف أقوم بتحليل مستويات النص والممارسات الخطابية والاجتماعية في «بيان التنحي»، بدءاً بدراسة مستوى الممارسات الخطابية السابقة على إلقاء البيان: عملية إعداد البيان وما تتضمنه من اختيارات بلاغية، وعملية مراجعته وتنقيحه. ثم أدرس مستوى تحليل نص البيان، مركزاً على مجموعة من الظواهر البلاغية الحاسمة في إنجاز البيان وظيفتي الإقناع والتأثير. وفي سياق ذلك، أدرس مستوى الممارسات الاجتماعية التي وجهت عمليات إنتاج البيان وتلقيه وتأويله. ولأن أبعاد البيان المختلفة تتقاطع في كثير من المواضع، فمن الطبيعي أن تتداخل مستويات التحليل؛ فتستمر الحركة من النص إلى الممارسات الخطابية إلى الممارسات الاجتماعية والعكس.

من المسودة إلى النص: العالَم والخطاب في لحظات التشكل

يُنسب «بيان التنحي» إلى الرئيس جمال عبد الناصر الذي ألقاه بصوته في مساء التاسع من يونيو ١٩٦٧. لكن البيان ينسب أيضاً إلى محمد

حسنين هيكل،(٤) الذي كشف عن أنه هو من قام بكتابته، وسرد تفاصيل وقائع كتابة مشروع البيان في مساء الثامن من يونيو، والنقاشات التي دارت بينه وعبد الناصر أثناء مراجعة هذا المشروع في نهار التاسع منه.(٥)

تُعد ظاهرة قيام شخص أو مجموعة من الأشخاص بكتابة مشاريع خطب رجال السياسة وبياناتهم أحد أهم ظواهر الاتصال السياسي المعاصر. فعلى الرغم من أن مهنة كتابة الخطب السياسية كانت معروفة منذ العصر اليوناني حين كان يقوم محترفو البلاغة بكتابة خطب بعض السياسيين اليونانيين مقابل أجر،(٦) فإن هذه المهنة لم تزدهر إلا منذ منتصف القرن العشرين. وقد أدى هذا الازدهار إلى نحت تسميات للقائمين بها؛ فأُطلِق على الشخص الذي يقوم بكتابة نص لكي يقوم شخص آخر بإلقائه دون إشارة إلى مؤلفه الأصلي الكاتب الخفي. أما النصوص التي يكتبها شخص – أو أشخاص – ليلقيها شخص آخر تنسب إليه فيُطلَق عليها الكتابة الخفيَّة.(٧)

تبدو مسألة الكاتب الخفي ذات حساسية خاصة في المقالة الحالية التي تتخذ من لغة البيان مادة للدراسة. وقد يمكن الادعاء بأن هذا البيان يمثِّل عبد الناصر بقدر ما يمثِّل مؤلفه الأصلي هيكل. ويبدو هذا صحيحاً تماماً لو أننا بصدد تقديم دراسة لأسلوب جمال عبد الناصر؛ لأن أية محاولة لاستخلاص سمات ما يمكن تسميته «الأسلوب الخطابي لعبد الناصر»، أو خصائصه، استناداً إلى خطبه المعدة سلفاً سوف تواجَه بمشكِل الكاتب الخفي. إلى حد أن ما قد يُقدَّم على أنه «البصمة الأسلوبية» لعبد الناصر ربما لا يعدو – في حال عدم الوعي بهذا المشكل – أن يكون البصمة الأسلوبية لكاتبه الخفي.

على الرغم من ذلك، فإن مشكل الكاتب الخفي ذو تأثير محدود على نتائج الدراسة الحالية، بالنظر إلى توجهها وغايتها. فالتوجه النقدي هنا غير معني باستخلاص السمات الأسلوبية المميِّزة للخطب، بقدر عنايته بتفسير كيف تقوم هذه الخطب بالتأثير في الجماهير المستهدَفة، وتحليل كيف تكون الصياغة اللغوية والبلاغية للبيان كاشفةً عن الأغراض التي تسعى إلى تحقيقها، والنتائج الفعلية التي ترتبت عليها. ومن هذه الزاوية، فإن تحليل البيان نقدياً لا يمكن أن يتحقق دون الأخذ في الحسبان مرحلة إنتاجه، التي تُصاغ فيها الاختيارات اللغوية والبلاغية الأساسية. أما غايتنا فهي فهم كيف تتحول البلاغة السياسية إلى أفعال سياسية، وبخاصة في لحظات الأزمات؛ وهي غاية تتجاوز العناية الشكلية بالأسلوب إلى العناية بحياة اللغة فعلياً في المجتمع. ولتحقيق هذه الغاية، لا بد أن يتجاوز البحثُ تحليلَ الظواهر اللغوية والبلاغية شكلياً إلى تحليل العلاقات الشائكة بين النص والمجتمع، ومن بينها عملية إنتاج النص وتحوله – بعد أن تمَّ إلقاؤه فعلياً – إلى خطاب.

وفي الواقع، فإن مسألة الكاتب الخفي ذات تأثير إيجابي لا سلبي في دراستنا. فمن حسن الحظ أن لدينا معلومات تفصيلية عن عملية كتابة هذا البيان منذ كان فكرةً ومشروعاً حتى أصبح نصاً ثم خطاباً.(٨) وتعطينا هذه التفاصيل فرصة نادرة لدراسة عملية تشكل الخطاب السياسي في لحظة مفصلية من تاريخ مصر المعاصر، كما أنها تتيح لنا تتبع أشكال الصراع التي توجد بين رؤيتين للعالَم تختلفان في أشياء وتتفقان في أشياء أخرى؛ هما رؤية الكاتب والحاكم. وتمكِّننا من معرفة كيف أمكن «تسوية» التعارضات التي توجد بين الرؤيتين بواسطة عمليات تحاور وتفاوض مكثفة، وكيف تعكس الاختيارات اللغوية والبلاغية لكلٍ منهما حدود رؤيته للعالم.

لقد قام هيكل بدور جذري في تشكيل توجهات السياسة المصرية وإيديولوجيتها في خمسينيات القرن الماضي وستينياته وأوائل سبعينياته. فقد قام من ناحية بكتابة معظم خطب عبد الناصر طوال فترة توليه الحكم ومعظم خطب السادات في الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٤. كما يُنسب إليه كتابة بعض أهم الوثائق التي حملت توقيع عبد الناصر، وأسهمت بشكل محوري في تأسيس ما بات يُعرف بـ«الإيديولوجيا الناصرية»؛ أي مجموعة القيم والمبادئ والأفكار والمفاهيم التي تبنَّاها نظام عبد الناصر ودافع عنها، ومن أهم هذه الوثائق كتاب **فلسفة الثورة**. إضافة إلى ذلك، كان هيكل من خلال رئاسته تحرير جريدة **الأهرام** – أكثر الجرائد العربية مبيعاً في تلك الفترة – يسهم في توجيه الرأي العام المصري والعربي على نحو ربما لم يُتح لصحفي عربي آخر في العصر الحديث. وبالمثل، كان لمقاله الأسبوعي في جريدة **الأهرام**، الذي حمل عنوان «بصراحة»، تأثير في صياغة وعي الجماهير وسياسات الحكم لم يُتح لأي مقال أسبوعي آخر.

إضافة إلى ذلك، فإن هيكل – وقت كتابة البيان – لم يكن مجرد «كاتِبَ خُطب»، بل كان شريكاً أساسياً في الحكم. لقد ذكر أنه كان أحد أشخاص قلائل أتيح لهم لقاء عبد الناصر والجلوس معه في اليوم السابق على التنحي واليوم الذي تلاه. كما ذكر أن عبد الناصر أعطاه تفويضاً كاملاً حين خلد إلى النوم بعد انتهائه من إلقاء البيان، وأن رجال الدولة جميعاً، ابتداءً من رئيس مجلس الأمة وانتهاءً بوزراء الداخلية والإعلام، لم تكن لديهم وسيلة للوصول إلى عبد الناصر نفسه – بعد أن ألقى «بيان التنحي» – إلا من خلال هيكل. ومن يستمع إلى وصف هيكل الوقائع التي أعقبت إلقاء «بيان التنحي» لا يساوره شك أنه كان الحاكم الفعلي في تلك السويعات العصيبة. وهكذا، فإن هيكل عشية كتابة «بيان التنحي» لم يكن جزءاً من «لسان» السلطة ممثلةً في رئيس الدولة فحسب، بل كان جزءاً من قلبها وعقلها ويدها أيضاً.

يصف هيكل وقائع تكليفه بكتابة البيان قائلاً: «كان عبد الناصر قد طلب إلي أن أعدَّ له مشروع خطابه إلى الأمة بالتنحي . . . ولم يكن في مقدوره – إنسانياً – تلك الليلة مع أحزانه وشواغله أن يجلس ليكتب خطاباً، فاتفق معي على نقاطه، وتعهدت بأن أكتبه له.(٩) ويذكر أنه قضى ساعات مع عبد الناصر يتناقشان حول صياغة البيان، في وقت كان العالم من حولهما في حالة غليان حقيقي، وكانت مصر على حد الموسى كما وصفها هيكل. ويبرهن الانشغال لساعات كاملة في صياغة الخطاب، في هذا الوقت العصيب، على الأهمية التي كانا يوليانها هذه الصياغة.

على الرغم من «اتفاق» عبد الناصر وهيكل على «نقاط الخطاب» والتلاقي الواضح بين أفكارهما واختياراتهما، فقد قامت بعض الاختلافات بين ما سطره هيكل وما أراده عبد الناصر. بعض هذه الاختلافات كان يتعلق بمسائل محورية مثل التعبير عن مدى مسئولية عبد الناصر عن النكسة؛ فقد ذكر هيكل أن عبد الناصر «أقر ما كتبته حتى نقطة: (إنني على استعداد لتحمل نصيبي من المسئولية)، عبد الناصر قال لي: لا، اكتب (أتحمل المسئولية كاملة)».(١٠) وقد أعاد هيكل كتابة العبارة مبقياً على تعبير «إنني على استعداد»، ومضيفاً إليه «المسئولية كاملة» بدلاً من «نصيبي من المسئولية». كما اختلفا حول مسألة من سيخلف عبد الناصر بعد تنحيه. كان رأي عبد الناصر أن يكتب هيكل اسم شمس بدران، وزير الحربية في ذلك الوقت؛ لكن هيكل رفض: «أنا حاولت أكتب اسم شمس بدران ولم يطاوعني أي قلم».(١١) وبالفعل، اقتنع عبد الناصر بحجج هيكل المفنِّدة اختيار شمس بدران، واختار بدلاً منه زكريا محيي الدين، عضو مجلس قيادة الثورة الذي شغل منصبي رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية. وبالمثل، رفض عبد الناصر اختيار هيكل تعبير «النكسة» كما سنرى لاحقاً، ثم اقتنع به في نهاية الأمر.

يبدو من الأمثلة السابقة أن شطراً كبيراً من النقاش تعلق مباشرة باختيارات بلاغية؛ مثل الاختيار بين مفردتي «النكسة» و«الهزيمة»، أو الاختيار بين تركيب «على استعداد لتحمل» و«أتحمل»، أو الاختيار بين «المسئولية» و«مسئولية»، وهي اختيارات أثرت في محصلة البيان النهائية، إضافة إلى أنها تشي بوجود اختلاف بين الكاتب والحاكم في نوع البلاغة التي يميل إلى استخدامها؛ ففي حين يبدو عبد الناصر أميل إلى إنتاج بلاغة مباشرة، تُسمِّي الأشياء بأسمائها وتقول الأشياء بأوضح الطرق وأوجزها، يبدو هيكل أميل إلى استخدام بلاغة مراوغة، تكنِّي وتلطِّف، وتُخفي أكثر مما تُصرح. ويظهر من صيغة البيان النهائية أن الكاتب والحاكم كليهما قد انحازا إلى بلاغة المراوغة في نهاية المطاف. وهو ما يتجلى – على سبيل المثال – في شيوع ظاهرة التلطيف اللفظي، أولى الظواهر البلاغية التي سندرسها.

التلطيف اللفظي: اللغة وتشكيل العالم

يمكن تعريف التلطيف اللفظي euphemism في الخطاب السياسي بأنه: استخدام تعبيرات مخففة أو غامضة أو غير مباشرة للإشارة إلى ظاهرة أو سلوك أو حدث ما، بهدف توجيه إدراك مستخدمي اللغة لهذه الظاهرة أو السلوك أو الحدث وجهة معينة. ويشير هذا التعريف إلى أن التلطيف اللفظي يؤثر في إدراك البشر للواقع الذي تقدمه التعبيرات الملطِّفة، انطلاقاً من تصور يرى أن اللغة التي نستخدمها تصوغ إدراكنا للعالم بالقدر نفسه الذي تكشف عنه.(١٢) كما يفترض التعريف أن التلطيف اللفظي يحدث في حالة إمكان وجود أكثر من تعبير أو تسمية للإشارة إلى شيء واحد، أحدها يُقدم الشيء كما هو، والآخر يُقدمه ملطَّفاً، والثالث يقدمه مهوِّلاً.(١٣)

التلطيف اللفظي سمة أساسية من سمات لغة السياسة. يرجع ذلك إلى أن لغة السياسة غايتها تأسيس عالم لغوي يحقق للسياسيين الذين يُنشئونه طموحاتهم في السيطرة على السلطة والاحتفاظ بها وإضفاء الشرعية عليها. وفي سبيل تحقيق ذلك، يلجأ السياسيون ومعاونوهم إلى حشد من الظواهر اللغوية والبلاغية التي تمكنهم من تقديم تصورات عن العالم الخارجي، تحاول صياغة توجهات أفراد الشعب نحو هذا العالم، وتشكل سلوكياتهم تجاهه. ويمكن التلطيف اللفظي من إنتاج نسخ معدلة ومكيَّفة من «الواقع» أو «الحقيقة» تقوم بصياغة توجهات الجمهور وسلوكياته، بما يخدم مصالح هؤلاء السياسيين. وسوف أكون معنياً في الصفحات الآتية بالكشف عن آليات استخدام التلطيف اللفظي ووظائفه ودوره في صياغة وعي المصريين بالهزيمة.

من الهزيمة إلى النكسة: تهوين أم استهانة؟

استخدم عبد الناصر في «بيان التنحي» تسمية «النكسة» لوصف نتيجة حرب ٥ يونيو، ١٩٦٧. خلَّفت هذه الحرب – التي حملت أيضاً اسم «حرب الأيام الستة»(١٤) – آثاراً مدمرة على جميع المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية.(١٥) وحين كان عبد الناصر يتهيَّأ لإلقاء «بيان التنحي»، كان قد وضح بجلاء أن الجيش المصري قد مُني بهزيمة مروِّعة. لكن البيان استخدم تعبير النكسة ولم يشر مطلقاً إلى تلك الهزيمة.

كان أول ورود لكلمة «نكسة» في «بيان التنحي» فور انتهاء عبد الناصر من العبارة الافتتاحية للبيان: «ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة، لكني واثق أننا جميعاً نستطيع – وفي مدة قصيرة – أن نجتاز موقفنا الصعب». ثم بعد ذلك وردت الكلمة أربع مرات على مدار البيان، مكوِّنة مصاحبات

لغوية مثل «درس النكسة»، و«تبعات النكسة». كما جاءت في صيغة جمع مرة واحدة مرتبطة بكلمة التضحيات.

للوهلة الأولى، يبدو استخدام تسمية نكسة جزءاً من استراتيجية خطابية للتلطيف اللفظي هدفها تقليل شعور المصريين بفداحة نتائج الحرب. هذا الشكل من التلطيف اللفظي يمكن تسميته «التهوين اللفظي»؛ ويتحقق عادة من خلال إخفاء التسمية المباشرة، دقيقة الدلالة على وضع ما، واستخدام تسمية أخرى تحمل دلالة أكثر خفة أو غموضاً. فتسمية «الهزيمة» ثقيلة الوطأة على النفس بما تحمله من دلالات مستقرة في نفوس أمة عانت الكثير من ويلات الهزائم؛ وبخاصة أن آخر هزيمتين تعرضت لهما كانتا حيتين في ذاكرة الأمة بتبعاتهما الباهظة. فقد أفقدت هزيمة عرابي الأمة استقلالها لما يزيد عن سبعين عاماً، أما جراح هزيمة ١٩٤٨، فكانت ما تزال مفتوحة ونازفة. وهكذا، كان استخدام كلمة الهزيمة اسماً لما حدث أشبه بالحفر بسكين في ذاكرة الهزائم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن استخدام كلمة الهزيمة كان يستدعي – على سبيل التضاد – السياق النصي co-text السابق على الحرب والمتزامن معها. فقد كان الخطاب السياسي المصري بجميع تجلياته المقروءة والمرئية والمسموعة قبيل الحرب وأثناءها يعج بمفردات النصر. وكانت خطب عبد الناصر نفسه قبيل الحرب بأيام تبشر بهذا النصر، وتدعو إلى الاستعداد له. يقول في خطبته في أعضاء مجلس الأمة من القصر الجمهوري في ٢٩ مايو، ١٩٦٧:

> الفورة العربية والثورة العربية وهياج الجماهير العربية الذي نراه اليوم في كل بلد عربي، وفي كل مكان، ليس فقط لأننا عدنا إلى خليج العقبة، أو لأننا تخلصنا من قوات الطوارئ الدولية.. لا.. إنه من أجل عودة الشرف العربي.. من أجل عودة الأمل العربي.. علينا أن نستعد لننتصر، لا لنعيد مهازل سنة ١٩٤٨؛ ننتصر بعون الله وبتأييد من الله.

لقد كان استخدام كلمة الهزيمة اسماً لما حدث يغامر باستدعاء خطب التبشير بالنصر ووعود استعادة الشرف والأمل، ومقارنة ما يحكيه «بيان التنحي» بما كانت تحكيه تلك الخطب. في حين يمكن أن يكون استخدام كلمة النكسة اسماً لما حدث بوابة سحرية للهرب من تنشيط ذاكرة الجماهير الخطابية حول النصر الذي كان موعوداً. وبعد أن تخلص البيان من كلمة الهزيمة، لم يكن من المفاجئ أن يربط بين النكسة والنصر، وأن يشير بلا مواربة أو تردد إلى أن النكسة – بل النكسات – هي

خطوة أولى «على طريق النصر الحتمي الأكيد». يقول عبد الناصر في منتصف البيان: «الحرب دفاعاً عن الحق العربي ممتدة مهما كانت التضحيات والنكسات على طريق النصر الحتمى الأكيد». وهكذا تحولت الهزيمة إلى نكسة والنكسة إلى خطوة في طريق النصر.

لا تنتمي كلمة النكسة في ذاتها إلى مجال الحرب، بمثل ما تنتمي كلمات «النصر» و«الهزيمة». وهي من هذه الزاوية لا تشير إلى مفهوم محدد في مجال الحرب الدلالي. بما يعني أن دلالتها في هذا الاستخدام دلالة غامضة غير محددة، ومن ثم، تصبح منفتحة أمام التأويل، وقادرة على إخفاء الواقع الذي يكشف عنه استخدام تسمية الهزيمة. ويبدو أن اختيار تسمية غامضة للدلالة على نتيجة الحرب متسق تماماً مع الممارسات الخطابية والاجتماعية في مصر آنذاك. فقد كانت المعلومات المتاحة لدى المصريين العاديين عن الحرب قبيل إلقاء البيان مشوّشة. لم يكن أحد من أفراد الشعب المصري – عدا قلة قليلة للغاية من الشخصيات المركزية في الحكم – يعرف أبعاد ما حدث. كان الغموض يلف البلاد. وكان أفراد الشعب في حالة من الدوار بسبب التضارب بين ما تتحدث عنه أجهزة الإعلام المصرية من نصر مُبين وما تبثه الإذاعات الدولية القليلة التي كان يمكن تلقي إرسالها في مصر من وقائع هزيمة مُهينة. كان الغموض يكتنف كل شيء، وجاءت كلمة النكسة لتستثمر هذا الغموض وتضيف إليه.

إضافة إلى استثمار طاقة الغموض الكامنة في تسمية النكسة، فإن هذه المفردة ربما تحمل في ذاتها بعض مشاعر التعاطف مع من يتعرض لها. يتولد هذا التعاطف نتيجة طبيعة المجال الدلالي الذي يشيع فيه استخدام الكلمة، وهو مجال المرض؛ فنكسة المريض هي معاودته العلّة بعد النقه.(١٦) والنكسة تبدو في هذا السياق حالة مرض تتطلب الوقوف إلى جانب المريض حتى يتماثل للشفاء، أما الهزيمة فهي حالة فشل تتطلب محاسبة المسئولين عنها، وفرق كبير بين الحالتين.

ذكر هيكل أن كلمة نكسة أخذت مناقشات بينه وبين عبد الناصر. وأن عبد الناصر قال له حرفياً: «كاتب ليه نكسة؟ إذا كانت هزيمة نقول هزيمة». وعلّل هيكل رفض عبد الناصر كلمة نكسة بأنه كان قلقاً من أن يقول الناس إن استخدام كلمة نكسة ينطوي على «تخفيف من اللي حصل». أما هيكل، فقد برر اختياره كلمة النكسة قائلاً:

> أنا باعتقد إن كلمة هزيمة في هذه اللحظة خطر، وجدت إن كلمة هزيمة هيترتب عليها حاجات كتير جداً، ثم هزيمة إزاي وفيه أطراف تانية بتقاتل؟ كان عبد الناصر قلقان إن كلمة نكسة يقول الناس إنها تخفيف من اللي حصل؛ إذا كانت

هزيمة نقول هزيمة. قلت له: أنت ماشي وسايب زكريا، فكيف يمكن أن تقول لزكريا وأنت ماشي نحن هزمنا؟ إذا قلت له نحن هزمنا فليس عليه إلا أن يقبل الهزيمة وتبعاتها، وكان هناك مقاومة وقتال فكيف تكون هزيمة؟ . . . الناس كانت رافضة لقبول الهزيمة ولكلمة الهزيمة.

يبني هيكل حجاجه عن تسمية النكسة على ثلاث حجج هي: ١- أن للاعتراف بالهزيمة تبعات لا يمكن تحملها (ربما إشارة إلى محاكمة المسئولين عنها)، ومن ثمَ فإن الأفضل هو نفي وقوعها، ٢- أن الهزيمة لم تقع لأنه توجد أطراف أخرى تحارب، ٣- أن الناس ترفض الهزيمة وكلمة الهزيمة. وقد اقتنع عبد الناصر بحجج هيكل، وأبقى على تسمية النكسة، التي جمَّلت واقعاً قبيحاً، وهوّنت لغةً ما يؤلم واقعاً، وحفظت للشعب بعض عزمه وإرادته، وضمنت لقادته كثيراً من تعاطف الشعب ومساندته.

العدوان وآثاره: إدانة العدو واستحضار التاريخ

لم يستخدم عبد الناصر في «بيان التنحي» تعبير «الحرب» للدلالة على الحرب التي دارت رحاها بين مصر وإسرائيل في الأيام السابقة على إلقاء البيان. وبالمثل، لم يستخدم تعبير«غزو» للإشارة إلى غزو إسرائيل الأراضي المصرية، ولا تعبير «احتلال» للإشارة إلى احتلال إسرائيل شبه جزيرة سيناء. فقد عمد البيان إلى تجاهل قائمة المصطلحات العسكرية المتعارف عليها، واستخدم قائمة أخرى من التعبيرات، كان محورها تعبير «العدوان».

لقد استخدم عبد الناصر تعبير العدوان لوصف وقائع الحرب، واستخدم تعبير آثار العدوان في وصف جميع الآثار التي خلفتها الحرب. ويبدو اختيار هذين التعبيرين منسجماً مع استراتيجية التهوين اللفظي من الهزيمة، و«التهويل اللفظي» لأفعال الخصم؛ كما يظهر بجلاء من بين سطور البيان. فالتعبير الأول يستمد قدرته التهويلية من المعنى المعجمي لكلمة عدوان التي تحمل دلالة الظلم وتجاوز الحد؛(١٧) أي أنها محمَّلة بقيم أخلاقية سلبية. إضافة إلى ذلك، فإن لكلمة عدوان تضمينات مهمة؛ فهي قد تنطوي على معنى المخاتلة والأخذ على غِرَّة، كما تنطوي على معنى الاعتداء على طرف مسالم.(١٨) وهي دلالات حرص البيان على ترسيخها في سعيه إلى إدانة ما قامت به إسرائيل من جهة، وتبرير ما آلت إليه الأحداث من جهة أخرى. وما كان يمكن للبيان أن يحقق ذلك إن استخدم مصطلح الحرب، الذي يشير إلى صراع عسكري بين طرفين يحاول كل منهما تحقيق أهداف سياسية بواسطة القوة العسكرية.

في الوقت نفسه الذي يقوم فيه تعبير العدوان بتهويل ما اقترفته إسرائيل، فإنه يقوم بتهوين الهزيمة من خلال الاتكاء على تاريخه الاستعمالي. لقد كان تعبير «العدوان الثلاثي» واسع الانتشار في أدبيات تلك الفترة للإشارة إلى حرب السويس في ١٩٥٦، وهي الحرب التي شنتها قوات إنجليزية وفرنسية وإسرائيلية على مصر إثر قرار تأميم قناة السويس. يقوم التعبير بوظيفته التهوينية من خلال التناص مع التسمية الشائعة لحرب السويس، التي تمثل نقطة مضيئة في وعي المصريين. ففي هذه الحرب، مُنيت مصر بهزيمة عسكرية، وانسحبت القوات المصرية من سيناء، لكن الحرب انتهت بنصر سياسي مصري باهر. ولم يقتصر التناص على استدعاء كلمة العدوان لوصف العمليات العسكرية، بل إن عبد الناصر أشار في البيان إلى العدوان الثلاثي في سياق حديثه عن عودة القوات المصرية إلى مضايق تيران «التي كان العدو الإسرائيلي يستعملها كأثر من آثار العدوان الثلاثي الذي وقع علينا سنة ١٩٥٦». كما أشار صراحة إلى التشابه بين حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٥٦ في سياق القول بأن قوى استعمارية (أمريكا وبريطانيا) حاربت إلى جوار الجيش الإسرائيلي في ١٩٦٧؛ يقول: «إن الدلائل واضحة على وجود تواطؤ استعماري معه [الجيش الإسرائيلي]؛ يحاول أن يستفيد من عبرة التواطؤ المكشوف السابق سنة ١٩٥٦، فيغطي نفسه هذه المرة بلؤم وخبث». وهكذا، فإن التناص مع العدوان الثلاثي على مصر استهدف الربط بين الحربين والانسحابين، حتى يمنح الجماهير التي لا تعرف ما حدث بالفعل مساحة أمل واسع في نصر مؤجَّل لم يدخر البيان جهداً في التبشير به. وهكذا، فبينما ترك البيان تسمية الهزيمة لأنها تغامر بالحفر في ذاكرة موجوعة، فإنه استخدم تسمية العدوان التي تتعمد الحفر في ذاكرة الانتصارات.

ينطوي «بيان التنحي» على حالات متعددة لما يُعرف بالمسكوت عنه أو مساحات الصمت.(١٩) فهناك على سبيل المثال مساحة صمت فيما يتعلق بدور القوات المسلحة المصرية في وقوع الهزيمة، ومساحة صمت مشابهة تخص الدور الذي قام به عبد الناصر تحديداً في تصعيد المواجهة مع إسرائيل. لكن أكثر مساحات الصمت لفتاً للانتباه هي المتعلقة بالنتائج الفعلية التي ترتبت على الهزيمة. فليس ثمة إشارة واحدة مباشرة إلى هذه النتائج، التي يُفترض أنها موضوعٌ أساسٌ في البيان. وكل ما استخدمه البيان للإشارة إلى هذه النتائج هو تعبير «آثار العدوان»: «أمامنا الآن عدة مهام عاجلة: المهمة الأولى: أن نزيل آثار هذا العدوان علينا، وأن نقف مع الأمة العربية موقف الصلابة والصمود. وبرغم النكسة فإن الأمة العربية بكل طاقاتها وإمكانياتها قادرة على أن تصر على إزالة آثار العدوان». يتسم تعبير «آثار العدوان» بالغموض

والتعميم. فهو لا يشير إلى أيٍّ من مظاهر الهزيمة وتجلياتها على أرض الواقع؛ فليس ثمة إشارة إلى الأرواح التي فُقدت، أو الأرض التي احتلت، أو القوات المسلحة التي دُمِّرت. واستطاع البيان القفز على نتائج الحرب بواسطة استخدام تعبير «آثار العدوان» الذي لم يظهر في النص إلا مقترناً بفعل «إزالتها». وهكذا، قفز البيان على تجليات الهزيمة ومظاهرها، مستفيداً من حيل التلطيف اللفظي ومهارات التلويح بالمستقبل.

التنحي والاستقالة: النحت فوق ذاكرة بيضاء

اشتهر بيان ٩ يونيو في الأدبيات السياسية بـ«بيان التنحي». وترجع هذه التسمية إلى حقيقة أن قرار عبد الناصر بالتنحي عن الحكم كان أكثر النقاط التي عالجها البيان تأثيراً في جماهير المخاطَبين. ويتجلى هذا التأثير بوضوح في خروج ملايين المصريين، إثر سماعهم البيان، للمطالبة بعدم التنحي. كما يتجلى في أن معظم الاهتمام الصحفي والإعلامي بالبيان اتجه إلى قرار التنحي. وهو ما أدى إلى تهميش نسبي للموضوع الذي كان يُفترض أن يكون محور البيان؛ أعني الهزيمة. وربما كان من العلامات الدالة على تحول عبارة التنحي إلى محور بيان ٩ يونيو أن معظم المقتطفات المسموعة أو المرئية التي توردها البرامج الوثائقية أو الأفلام التي تتناول تلك الفترة تتضمن إما عبارة التنحي فقط أو الجملة الافتتاحية للبيان بالإضافة إليها. كما تتجلى محورية فعل التنحي في بعض الاختيارات السيميوطيقية، مثل قيام فريق العمل الذي أعد خطب عبد الناصر للنشر الإلكتروني على موقعه على الإنترنت بكتابة عبارة التنحي وحدها ببنط غامق مميز يستوقف العين المتصفحة للبيان. كما اختاروا للبيان التسمية الآتية: «بيان الرئيس جمال عبد الناصر إلى الشعب والأمة بإعلان التنحي عن رئاسة الجمهورية». وهي تسمية تختزل البيان في إعلان التنحي، وتهمل الهزيمة.

اُستُخدمت كلمة «التنحي» بوصفها تلطيفاً لفظياً لمصطلح «الاستقالة»؛ وهي التسمية الدستورية لتخلي رئيس الدولة الطوعي عن الاستمرار في أداء مهام وظيفته. فالمادة ١١٠ من الدستور المؤقت الصادر في شهر مارس سنة ١٩٦٤ التي أشار عبد الناصر إلى أنه يستند إليها في قرار تنحيه عن الحكم، لا تستخدم تعبير التنحي؛ وإنما تستخدم تعبير الاستقالة. ونص هذه المادة هو: «في حالة استقالة الرئيس، أو عجزه الدائم عن العمل، أو وفاته، يتولى الرئاسة مؤقتاً النائب الأول لرئيس الجمهورية. ثم يقرر مجلس الأمة، بأغلبية ثلثي أعضائه، خلو منصب الرئيس. ويتم اختيار رئيس الجمهورية خلال مدة لا تتجاوز ستين يوماً من تاريخ خلو منصب الرياسة». والأمر نفسه ينطبق على المادة ١١١ من الدستور نفسه

التي تنظم كيفية الاستقالة، ونصها: «إذا قدم الرئيس استقالته من منصبه، وجه كتاب الاستقالة إلى مجلس الأمة».(٢٠)

يبدو أن استخدام كلمة التنحي بمعنى الاستقالة لم يكن شائعاً في تلك الفترة؛ آية ذلك أن المعجم الوسيط الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠ وحرص مؤلفوه على أن يُضمِّنَ متنُه العديد من المعاني المستحدثة للمفردات لم يذكر هذا المعنى لكلمة التنحي. ففي مادة «نحا» يتوقف المعجم أمام المعاني الآتية لكلمة «تنحَّى»: «تنحَّى: صار في ناحية. وتنحَّى: زال وبَعُد؛ يُقال نحَّاه فتنحَّى. وتنحَّى له: قصد واعتمد».(٢١) ولم يرد ذكرٌ للتنحي بوصفه استقالة عن العمل. وربما أدّى عدم شيوع هذا الاستخدام لكلمة التنحي إلى بعض الغموض في دلالتها.(٢٢) والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا عدل المتكلم عن التسمية الدستورية إلى التسمية التلطيفية؟

هناك أهداف عملية لاختيار كلمة التنحي؛ فقد أشار شريف يونس إلى أن «الاستقالة نقل للسلطة، ويجب دستورياً أن توجه لمجلس الأمة وفقاً للمادة ١١١ من دستور ١٩٦٤ المعمول به آنذاك». ويتساءل يونس: «هل كانت صيغة التنحي الغامضة التي وردت في البيان تهدف لتجنب هذه التعقيدات الدستورية؟».(٢٣) من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال هي نعم. فقد سعى عبد الناصر باستخدام كلمة التنحي إلى تجنب اتباع الخطوات الدستورية التي توجبها الاستقالة؛ وهو ما أتاح له أن يختار بنفسه من يخلفه. في حين كان عليه لو استخدم مفهوم الاستقالة أن يوجه خطاباً مكتوباً إلى مجلس الأمة، ومن ثمَّ يُنظِّم المجلس عملية اختيار رئيس جديد.

لكن استخدام كلمة التنحي يؤدي وظائف أخرى تنتج عن الفرق بين التاريخ الاستعمالي لكلمة الاستقالة والتاريخ الاستعمالي لكلمة التنحي. فالأول يبدو ثرياً؛ لأنه غالباً ما يكون محملاً بذكريات شخصية بسبب ارتباطها بجانب مهم من جوانب حياة المواطن المصري اليومية، هو جانب العمل. وهكذا، فإن تلقي الجمهور كلمة الاستقالة سوف يكون محكوماً بالارتباطات النفسية والمعنوية التي تكونت لديهم نحوها من قبل. أما كلمة التنحي، فلم تكن لتُثير دلالات كامنة في نفوس المصريين، وهو ما يعني أن الذهن سوف يشرع في تشكيل ارتباطات نفسية ومعنوية جديدة لها؛ وهكذا يصبح استخدام كلمة التنحي نحتاً في ذاكرة بيضاء، هرباً من الذاكرة المشحونة.

إضافة إلى ذلك، فإن استخدام تسمية الاستقالة لوصف قرار عبد الناصر بترك الحكم كان سينطوي على تضمينات هي أن عبد الناصر مسئول عن وقوع الهزيمة، وأن تسببه في الهزيمة هو السبب في استقالته.

وفي الواقع فإن الصياغة التي استخدمها عبد الناصر في عبارة التنحي لا تتضمن أي اعتراف بأنه كان سبباً في وقوع الهزيمة، بل تصرح بوضوح أنه مسئول عن «تبعات النكسة». والفرق جلي بين تحمل المسئولية عن وقوع الهزيمة وتحمل مسئولية التخلص من آثارها. وهكذا، كان استخدام تسمية التنحي التي لا تنطوي على أية تضمينات مسبقة منسجماً مع توجه البيان نحو القفز على مسألة الاعتراف بالمسئولية عن الهزيمة.

استعارات الهزيمة: الزحف المقدس في مفترق الطرق

يحفل البيان بعدد من الاستعارات والتشبيهات الجزئية التي تتجمع بصفة خاصة في مفتتح البيان وخاتمته. لكن توجد استعارة مفهومية conceptual metaphor مركزية يكاد يدور حولها البيان هي استعارة «النكسة توقُّف عن المسير».(٢٤) تستوعب هذه الاستعارة الموضوعات الأساسية التي عالجها البيان. ففي إطار هذه الاستعارة تم تصوير مستقبل مصر والعالم العربي السياسي بوصفه سيراً في طريق. أما المصريون والعرب، فتم تصويرهم بوصفهم «السائرون في الطريق»، والطريق ذاته يحمل اسم الغايات التي يسعى السائرون للوصول إليها فهذا «طريق العزة» وذاك «طريق الكرامة» وثالث «طريق النصر»، إلخ. هذا السير قد يتعرض لعوامل خارجية تعوقه مثل النكسة التي تضع السائرين في «مفترق طرق»، وتحجب عنهم «الضوء» الكافي لمواصلة المسير. ومن ثم، يُصبح الهدف الأساس هو استئناف المسير بعد التخلص من «عوائق» الطريق التي تضعها قوى الاستعمار، واسترجاع البصيرة – أو البوصلة – لمعرفة أي الطرق يجب السير فيه، وتعبيد هذا الطريق أمام الشعب السائر.

منذ المفردات الأولى للبيان، يضع عبد الناصر لبنات هذه الاستعارة المركزية. يقول في مفتتح البيان: «لقد تعودنا معاً في أوقات النصر وفي أوقات المحنة، في الساعات الحلوة وفي الساعات المرة؛ أن نجلس معاً، وأن نتحدث بقلوب مفتوحة، وأن نتصارح بالحقائق، مؤمنين أنه من هذا الطريق وحده نستطيع أن نجد اتجاهنا السليم، مهما كانت الظروف عصيبة، ومهما كان الضوء خافتاً». تشير العبارة السابقة إلى الغاية التي أنشيء لأجلها البيان، والهدف الذي يسعى إلى تحقيقه. فالبيان يُقدَّم بوصفه «طريق مصارحة»، هدفه تحديد الاتجاه السليم الذي يمكن اجتيازه في مفترق الطرق الذي قادت النكسة إليه. ويتم تصوير المصارحة في هذا السياق بالبوصلة التي ستمكن عبد الناصر والشعب من العثور على الاتجاه السليم.

ترسم الفقرة الافتتاحية الأولى لوحة «المتوقفين عن المسير»، هؤلاء الباحثين عن الاتجاه السليم، على هدي ضوء خافت. ولأن المخاطَبين

بالبيان لا يعلمون أين يقفون أو لماذا، ولا يدركون كذلك ماهية الظلمة التي تشملهم أو إلى أين المسير، فقد واصلت الفقرة التالية التي تحمل معها اعترافاً مراوغاً بالهزيمة، تشكيل لوحة المتوقفين عن المسير، يقول:

> ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة، لكني واثق أننا جميعاً نستطيع – وفي مدة قصيرة – أن نجتاز موقفنا الصعب، وإن كنا نحتاج في ذلك إلى كثير من الصبر والحكمة والشجاعة الأدبية ومقدرة العمل المتفانية. لكننا – أيها الإخوة – نحتاج قبل ذلك إلى نظرة على ما وقع؛ لكي نتتبع التطورات وخط سيرها في وصولها إلى ما وصلت إليه.

يقوم تعبير «موقفنا الصعب» في المقتطف السابق بوظيفة تلطيفية؛ لكونه تهويناً لفظياً من الهزيمة. فبدلاً من أن يتحدث البيان عن «تجاوز الهزيمة» يتحدث عن «تجاوز الموقف الصعب». لكن تعبير «الموقف الصعب» إذا نُظر إليه من زاوية المعنى الحرفي يبدو منسجماً مع استعارة «النكسة توقف عن المسير»؛ فوفق هذه الاستعارة تصبح الـ«نحن» التي تشير إلى من وقعت عليهم الهزيمة عالقة في موقف صعب. ومن ثمَّ، تُصبح غاية هذه النحن هي اجتياز الموقف الصعب. وهنا، يأتي دور أول حضور لعبد الناصر بوصفه حاكماً فرداً لا يتخفى وراء ضمير النحن، وذلك من خلال ضمير ياء المتكلم «لكني واثق»، الذي جاء مقترناً بتقديم بشائر يقين وأمل للنحن المنكوسة.

لقد قرن البيان صورة الشعب العالق في موقف صعب يسعى إلى اجتيازه، والحاكم الممتلك يقين القدرة على الاجتياز، بتحديد كيفية الاجتياز وما يحتاجه من سلوكيات أو أفعال. فقد حدد عبد الناصر بيقين كامل ما يحتاجه العالقون لإنجاز الاجتياز ومواصلة المسير؛ ومن بين ما يحتاجونه تتبع خط سير الأحداث، حتى وصلتْ إلى ما وصلتْ إليه. والتعبير الأخير يستند إلى استعارة مفاهيمية هي أن الأحداث شخص يسير في طريق؛ ومن ثم، فإنه يمكن تتبع نقطة انطلاقها، وخط سيرها، ومحطة وصولها. وهي استعارة سحرية لأنها تصور الأحداث في صورة كائن يمتلك مقدرة السير وحرية اختيار الطريق. وبذلك، تأخذ الأحداث طابعاً حتمياً، لتتحول من فعل بشري مقصود إلى قدر مفروض. وهكذا، تسقط فكرة المسئولية عن الهزيمة، ودواعي مساءلة المتسببين فيها. وقد حرص البيان في جميع فقراته على إظهار طابع الهزيمة «الحتمي»؛ وبخاصة من خلال تقديم حجج عسكرية مغلوطة سواء ما يتعلق منها بمدى اشتراك

قوات أمريكية وإنجليزية في الحرب، أو ما يتعلق بالأداء العسكري المصري أثناءها الذي أشاد به عبد الناصر في أكثر من موضع.(٢٥)

استغرق تصوير عبد الناصر «خط سير الأحداث» ما يزيد على نصف مساحة البيان بأكمله؛ فمن محصلة ١٦١٧ كلمة هي مجموع مفردات البيان استغرق هذا التصوير ٨٨٨ كلمة، بنسبة ٥٥٪ تقريباً. بينما استغرق وصفه حال «المتوقفين عن المسير» ١١١ كلمة، بنسبة ٧٪ تقريباً. وهكذا، شغل تصوير ما تم اجتيازه من الطريق أضعاف المساحة التي شغلها تصوير مفترق الطرق المظلم الذي علقت فيه «النحن» أثناء سيرها خلف القائد. أما النسبة الباقية من البيان، فقد شغلها ما تبقى من الطريق؛ أعني طريق المستقبل الذي قام عبد الناصر في البيان بتعبيده ليحمل «النحن» المنكوسة إلى ساحات النصر؛ فـ«الحرب دفاعاً عن الحق العربي ممتدة مهما كانت التضحيات والنكسات على طريق النصر الحتمى الأكيد». لكن عبد الناصر بعد أن يعد بإمكان استئناف المسير، ويصوغ شكل المسير واحتياجاته وأهدافه، يعلن فجأة أنه يتنحى. لقد قرر قائد المسيرة أن يتركها في مفترق الطرق المظلم بعد أن زرع في نفوس «العالقين» أمل استئناف المسير. ليس هذا فحسب؛ بل اختار لهم قائداً جديداً للمسيرة (زكريا محيي الدين) لا تحمل ذاكرتهم له من الإيجابيات الكثير.(٢٦)

تنسجم استعارة الطريق مع أحد أكثر التعبيرات شيوعاً وإثارة للجدل في الأدبيات السياسية في فترة الخمسينيات والستينيات؛ أعني «الزحف المقدس». تمت صياغة هذا التعبير لوصف مشروع السلطة الناصرية لخلق «شعب» يتكتل خلف قائده. وقد تتبع شريف يونس جذور مفهوم الزحف المقدس الذي تمت بلورته في عام ١٩٥٣، وأثبتَ عبر تحليل معمَّق وشامل للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تلك الفترة أن هذا الزحف المقدس كان حلم الضباط ومشروعهم السياسي. ولتحقيقه كان عليهم تفكيك أية تجمعات سياسية، وإخضاع كل التجمعات الاجتماعية لقبضتهم، من جمعيات ونقابات عمالية ومهنية وأندية وغيرها. ثم الإقناع بهذه الرؤية الاستبدادية بوصفها مثلاً أعلى عبر أدوات دعاية كانت تزداد إلحاحاً وانتشاراً.(٢٧)

وهكذا، فإن استعارة «الهزيمة توقف عن المسير» تصوِّر الهزيمة في صورة توقف الزحف المقدس؛ الذي يُحقق للشعب كينونته. ويحمل ذلك دلالة ضمنية هي أن الاعتراف بالهزيمة وقبول التنحي ليس مجرد توقف عن المسير بل هو فقدان المصريين وجودهم بوصفهم شعباً؛ لأنهم لا يشعرون بهذا الوجود إلا وهم يسيرون في «زحف مقدس» خلف قائد يمنحهم هبة هذا الوجود.(٢٨) ولأن القائد هو من ينفث في الشعب

روحه، ويمنحه عقله وقلبه، فقد كان من الطبيعي أن تتماهى الحدود الفاصلة بين «أنا» عبد الناصر، و«أنت» الشعب؛ ليتحد الكل في «نحن» مراوغة، كانت أهم أدوات البيان البلاغية في توزيع مسئولية الهزيمة، وإذكاء جذور رفضها ورفض التنحي كليهما، على نحو ما سنبرهن بالتفصيل في تحليلنا الضمائر الشخصية في البيان.

استخدام الضمائر: استراتيجيات التضامن والمراوغة

تنقسم الضمائر الشخصية في اللغة العربية إلى ثلاثة أنواع: ضمائر التكلم (أنا، تاء المتكلم، ياء المتكلم، نحن، نا الفاعلين)، وضمائر الخطاب (أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن، كاف الخطاب)، وضمائر الغيبة (هو، هي، هما، هم، هن، هاء الغائب). من الطبيعي أن تعود ضمائر المتكلم في البيان إلى عبد الناصر والجماعة التي يمثِّلها أو يتحدث باسمها، وأن يستخدم ضمير المفرد المتكلم (أنا) للتعبير عن نفسه، وضمير الجمع المتكلم للإشارة إلى نفسه بمعية الجماعة التي يمثلها أو يتحدث باسمها. أما المخاطَب في «بيان التنحي»، فقد تم تحديده سياقياً ونصياً بأنه الشعب المصري؛ واستخدم عبد الناصر كاف الخطاب للإشارة إليه. في حين استُخدمت ضمائر الغيبة للإشارة إلى كل ما هو خارج عملية التواصل المباشر بين المتكلم والمخاطَب؛ ومن ثم، استخدمت للإشارة إلى إسرائيل وقوى الاستعمار والدول العربية وروسيا وفرنسا وغيرها من الكيانات التي ورد ذكرها في البيان.

ربما كانت طريقة استخدام الضمائر الشخصية في «بيان التنحي» أكثر ظواهره ثراءً من وجهة النظر البلاغية. لا يرجع ذلك فحسب إلى تعدد الظواهر البلاغية المرتبطة بالضمائر في البيان مثل الالتفات والتغليب ووضع المظهر موضع المضمر؛ بل يرجع كذلك إلى الوظائف البلاغية المتعددة التي حققتها هذه الطريقة، والمهارة البلاغة المتناهية التي تكشف عنها. سوف أتناول طرق استخدام ضمائر التكلم والخطاب ووظائفها في «بيان التنحي». ويرجع استبعادي ضمائر الغيبة إلى أن هذه الدراسة معنية بالدور الذي تقوم به الضمائر في صياغة العلاقة بين المتكلم (عبد الناصر) والمخاطَب (الشعب)؛ وليست معنية بآليات وصف عبد الناصر الكينونات الغائبة. إضافة إلى اهتمامها بتحليل الصورة التي يقدمها عبد الناصر عن نفسه وعن الشعب بواسطة استخدام ضمائر التكلم ولخطاب، والآثار البلاغية لهذه الصورة. ولتحقيق ذلك سوف أقدم – بداية – حصراً عددياً بضمائر التكلم والخطاب في «بيان التنحي»: أ- ضمائر المفرد المتكلم = ٤١، ب- ضمائر الجمع المتكلم = ٨٠، ج- ضمائر الجمع المخاطب = ٥. ويكشف الحصر السابق عن بعض الظواهر اللافتة أهمها

سيطرة ضمائر الجمع المتكلم على «بيان التنحي»؛ فهي تمثل ما يزيد على ٦٤٪ من مجموع ضمائر الخطاب والتكلم. وعلى الرغم من أن البيان هو خطاب موجه من عبد الناصر إلى جماهير الشعب المصري، فإن ضمائر الخطاب لا تشغل أكثر من ٣٪ من مجموع ضمائر التكلم والخطاب. وعلى النحو ذاته، يكشف توزيع هذه الضمائر على فقرات النص أن فقرتي البيان الافتتاحيتين - وتمثل كلماتهما أقل من ٧٪ من مجموع كلمات النص - تستأثران وحدهما بما يزيد على ٢٠٪ من ضمائر الجمع المتكلم التي توجد في البيان بأكمله (٢١ من مجموع ٨٠ ضميراً)، وما يقرب من ١٥٪ من مجموع ضمائر التكلم والخطاب التي توجد في البيان (٢٢ من مجموع ١٢٦ ضميراً). وبالمقابل، تستأثر فقرة التنحي وفقرة تولية زكريا محيي الدين رئيساً للجمهورية - وتمثل كلماتهما حوالي ٧٪ من مجموع كلمات النص - بما يزيد على ٤٦٪ من مجموع ضمائر المفرد المتكلم في النص (١٩ من مجموع ٤١ ضميراً). ومن المؤكد أن الإحصاءات السابقة وطريقة توزيع الضمائر الشخصية في البيان تثير الكثير من التساؤلات، سوف نحاول طرحها والإجابة عنها فيما يأتي.

ضمائر النحن: من الإدماج إلى التنصل من المسئولية

ضمير الجمع المتكلم (نحن) أكثر الضمائر الشخصية مراوغة في الخطاب السياسي. فضمير المتكلم المفرد (أنا) عادة ما يعود دون التباس إلى ذات المتكلم المفردة. كذلك، عادة ما يشير ضمير المخاطَب المفرد أو الجمع إلى ذوات مخاطَبين يتم تحديدهم نصياً أو فعلياً. على خلاف ذلك، يتسم مرجع ضمير نحن في الخطاب السياسي بالكثير من الغموض؛ فهو قد يشير إلى أنا مَلَكيَّة أو مُعظَّمَة تُعبر عن نفسها بنحن الملكية، كما هو الحال في صيغة الافتتاح التقليدية في عهد الملك فاروق («نحن فاروق الأول»). لكنه قد يشير بالفعل إلى جمع من المتكلمين؛ ونحن في هذه الحال إما أن تكون نحن العامة، التي تشير إلى جميع المخاطَبين بها إضافة إلى ذات المتكلم، أو نحن الخاصة، التي تشير إلى ذات المتكلم إضافة إلى مجموعة أخرى من الأفراد ممن قد يتم تعيينهم نصياً أو فعلياً، وهم غالباً ما يكونون معاوني الرئيس ومن يشاركونه الحكم.

ينشأ غموض دلالة نحن في الخطاب السياسي نتيجة حرص السياسيين في كثير من الحالات على عدم تحديد مرجع دقيق لها. ويحقق ذلك وظيفة أساسية في الخطاب السياسي المعاصر هي وظيفة الإدماج. حيث تسعى كل سلطة سياسية مسيطرة إلى احتكار التحدث باسم الجماعة التي تحكمها؛ مما يتيح لها تقديم مصالحها وأهدافها بوصفها مصالح الجماعة بأكملها وأهدافها. كما يُحقق غيابُ المرجع وظيفةَ إبهام الفاعل؛

حين يكون للعمل المنسوب إلى النحن آثار سلبية يسعى المتكلم إلى التنصلُّ من مسئوليته الفردية عنها، فيستخدم النحن العامة التي تُحمِّل المسئولية للجميع على النحو الذي يتجلى بوضوح في «بيان التنحي».

يثير الحضور الطاغي لضمائر الجمع المتكلم تساؤلات حول الوظائف التي تؤديها هذه الضمائر. من الواضح بداية أن استخدام ضمير المتكلم الجمع بهذه الكثافة في «بيان التنحي» يعكس حرص عبد الناصر الشديد على تأسيس علاقة اتحاد بينه وجماهير الشعب المصري التي تتلقى البيان. فالفقرات الافتتاحية من البيان تُهيمن عليها ضمائر الجمع المتكلم؛ سواء في موقع الفاعلية كما في «تعودنا»، «نجلس»، «نتحدث»، «نتصارح»، «نستطيع»، «نخفي»، «نجتاز»، «واجهنا»، «نحتاج»، «نتتبع»، إلخ، أو في موقع الإضافة كما في «اتجاهنا»، «أنفسنا»، «موقفنا»، إلخ. من الجلي أن علاقة الاتحاد بين عبد الناصر والشعب التي يؤسسها استخدام الضمائر تحقق وظائف بلاغية حاسمة في السياق التداولي للبيان. فنسبة الأفعال إلى النحن التي تشمل القائد والشعب تعني ضمنياً التشارك في المسئولية عن هذه الأفعال. وربما كانت الفرصة التي يتيحها ضمير الجمع للتخفف من المسئولية عن الهزيمة سبباً مباشراً لاستخدامه بدلاً من ضمير أنا في مواضع يبدو من البديهي تماماً أن يُستخدم الثاني فيها. وذلك كما في قوله «لا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة». فالصياغة الأصلية لهذه الجملة هي «لا أستطيع أن أخفي عليكم أننا واجهنا نكسة خطيرة». وذلك لأن الشعب لم يكن يعلم ما حدث كي يخفيه، كما أنه ليس له أية مصلحة في إخفاء وقائع هزيمة لم يكن سبباً فيها. وبذلك يتيح ضمير النحن ارتداء قناع الجمع، حين يصبح وجه المتكلم المفرد مهدداً بالخذلان.

بالإضافة إلى ذلك، يخلق ضمير نحن في «بيان التنحي» حالة من التضامن بين الشعب والقائد والقوات المسلحة. فالأصل أن يشير عبد الناصر إلى القوات المسلحة مستخدماً ضمير «هم»، وأن يشير إلى الشعب الذي يخاطبه بضمير «أنتم»، وأن يشير إلى نفسه بضمير «أنا». لكنه اختار أن يستخدم ضمير نحن ليجمع الكل في واحد. ويتيح ذلك تمرير الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها القيادة العليا للقوات المسلحة؛ وبخاصة قرار الانسحاب العشوائي من سيناء. وذلك بواسطة استخدام تعبير «قواتنا المسلحة»، الذي تكرر في البيان سبع مرات ليستحوذ وحده على ما يقرب من ٩٪ من مجموع ضمائر النحن في البيان. لكن استخدام ضمير نحن يتيح أيضاً تدعيم التضامن بين الشعب من ناحية والقوات المسلحة من ناحية أخرى؛ وهي مهمة بدت حاسمة في وقت بدأت تتكشف فيه أبعاد الهزيمة، وكان من المتوقع أن تعصف الهزيمة بثقة المصريين في جيشهم.

ربما تفسر هيمنة ضمائر الجمع للمتكلم غياب ضمائر المخاطَب بنوعيها المفرد والجمع. فالمخاطَبون أدمجوا مع المتكلم في ضمير واحد هو نحن؛ ففقدوا بذلك وجودهم بوصفهم كياناً مستقلاً له ضمير مستقل هو أنتم؛ على الرغم من أن الأصل في البيان السياسي أنه رسالة محددة الموضوع موجَّهة من مرسل متعين إلى مستقبل متعين، لكل منهما ضميره المعياري؛ فللأول ضمير الأنا، وللثاني ضمير الأنت. لكن هيمنة النحن الإدماجية أزاحت ضمائر الخطاب من ساحة البيان فلم تتكرر بصيغها المختلفة سوى خمس مرات، تمثل ٤٪ من مجموع ضمائر التكلم والخطاب في البيان. ونظرة سريعة على المواضع التي وردت فيها ضمائر الخطاب تؤكد أن استخدامها هي أيضاً كان بهدف الإدماج وتعزيز الاتحاد بين القائد والشعب؛ فقد وردت أربعة منها في الجملتين الآتيتين: «لقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه» و«إن قلبي كله معكم، وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي، وليكن الله معنا جميعاً؛ أملاً في قلوبنا وضياءً وهدى». الجملة الأولى جاءت قبل إعلان قرار التنحي، ويطلب فيها عبد الناصر من الشعب مساعدته على تنفيذ قراره. وبالمثل جاء ضميرا الخطاب في الجملة الثانية التي اختتم بها عبد الناصر بيانه في سياق طلب آخر من الشعب بأن يمنحه قلبه. ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن الضمائر الأربعة جاءت جميعاً متعلقة بفعل «أريد» المنسوب إلى أنا عبد الناصر. كما أنها جاءت كذلك في سياق طلب مباشر للتوحد والتضامن بين عبد الناصر والشعب. والجملة الأخيرة واضحة الدلالة على أن ضمائر الخطاب في «بيان التنحي» لم تعكس استقلالية ذات المتكلم عن ذات المخاطَبين بقدر ما عكست سعياً نحو الدمج بين ذواتهم؛ فقد بدأ عبد الناصر الجملة بضمير المتكلم (أنا)، ثم انتقل إلى ضمير المخاطَب (أنتم)، وأخيراً جمع بين ضميري المتكلم والمخاطَب في ضمير واحد (نحن الإدماجية). وفي سياق ذلك ذكر أن قلبه مع الشعب، وطلب من الشعب أن يكون قلبه معه، وحين اتحدت الضمائر حلَّ قلب الحاكم في قلوب الشعب، وحلَّت قلوب الشعب في قلب الحاكم، ولم يعد موجوداً سوى «قلوبنا» التي تضم في إطارها الجميع.

عبد الناصر وأنا: استدعاء الأسطورة الفردية

فيما عدا ضمير متكلم مفرد واحد ورد في الفقرة الثانية من البيان لم يستخدم عبد الناصر صيغة «أنا» إلا بعد مرور ما يقرب من خمس البيان (٣٤٧ كلمة من مجموع ١٦١٧ كلمة). وفي حين كان معدل ورود هذه الضمائر قبل فقرة التنحي ١٪ (١٢ ضميراً داخل ١١٠٨ كلمة)، كان معدلها في فقرة التنحي وما بعدها يزيد عن ٦٪ (٢٩ ضميراً داخل ٥٠٩ كلمة). وهو ما يعني أن نسبة استخدام ضمائر المفرد المتكلم في فقرات

التنحي وما بعدها تزيد خمسة اضعاف عن نسبة استخدامها قبل فقرة التنحي. يمكن تفسير توزيع الضمائر هذا في ضوء الموضوعات التي تناولتْها أجزاء البيان، والوظائف التي استهدفتْها هذه الأجزاء. وبالنظر إلى التقسيم السابق لأجزاء البيان، سوف يتضح أن المقدمات الافتتاحية كانت تهدف إلى تأكيد التضامن بين المتكلم والمخاطَبين؛ ومن ثم، فقد شهدت كثافة عالية في استخدام ضمير نحن الذي يفيد التضامن والإدماج. أما الجزء الثاني الذي يشمل سرد الوقائع السابقة على الحرب وبعض وقائع الحرب، وما أطلق عليه عبد الناصر «دروس النكسة»، فقد استهدف إعادة بناء الماضي في أذهان الجمهور، وإعطاءهم معلومات بعينها عن الحرب، واقتراحات لمواجهة «تبعاتها». وشهد هذا الجزء تنوعاً في استخدام ضمائر المفرد المتكلم والجمع. أما الجزء الأخير، فقد تناول إعلان عبد الناصر تنحيه عن الحكم؛ أي فك العلاقة بينه والجمهور. لذا، لم يكن من الغريب أن يصاحب ذلك استخدام كثيف لضمائر المفرد المتكلم التي تميِّز الذات عن الآخرين وتضع أنا في مقابل نحن. ومع ذلك، فإن ضمير النحن لم يختف من هذا الجزء؛ بل كان يُطل برأسه بين الحين والآخر، وبخاصة في السطر الأخير من البيان، الذي يتضمن دعوة صريحة إلى إعادة الاتحاد بين المتكلم والمخاطَبين، أو بين عبد الناصر والشعب.

توجد ظاهرة أخرى لافتة في استخدام ضمائر المفرد المتكلم في البيان هي ظاهرة الالتفات من الغيبة إلى التكلم والعكس، كما يظهر في المقتطف الآتي:

> إن قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها، وأريدُ أن يكون واضحاً أمامهم أنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر، والقوى المعادية لحركة القومية العربية تحاول تصويرها دائماً بأنها إمبراطورية لعبد الناصر، وليس ذلك صحيحاً؛ لأن أمل الوحدة العربية بدأ قبل جمال عبد الناصر، وسوف يبقى بعد جمال عبد الناصر. ولقد كنتُ أقولُ لكم . . .

فالفقرة السابقة تتضمن خمسة التفاتات؛ ثلاثة من التكلم إلى الغيبة، يتم التحول فيها من ضمير المتكلم المفرد (أنا) إلى الاسم الظاهر الغائب (جمال عبد الناصر)؛ واثنين من الغيبة إلى التكلم؛ يتم التحول فيهما من الاسم الظاهر الغائب (جمال عبد الناصر) إلى ضمير المتكلم المفرد (أنا). إضافة إلى ذلك، تتضمن الفقرة ظاهرةً بلاغية أخرى هي استخدام الاسم المُظهر (عبد الناصر) بدلاً من المُضمَر (هو في حالة

الغيبة، وأنا في حالة التكلم)؛ فقد تكرر اسم جمال عبد الناصر خمس مرات في عبارة واحدة، تكاد تكوّن جملة واحدة طويلة، وكان يمكن أن يُغني الضمير عن تكرار الاسم ثلاث مرات على الأقل. كما عكست العبارة حرصاً على ذكر اسم عبد الناصر كاملاً. وهكذا، احتل الاسم وحده ربع عدد كلمات العبارة (١٤ كلمة من مجموع ٥٧ كلمة).

من الواضح أن ظاهرتي الالتفات ووضع المضمر موضع المظهر هدفهما استحضار اسم جمال عبد الناصر ووضعه في صدارة النص. يرجع ذلك إلى الارتباطات الإيجابية الهائلة التي كان يستدعيها هذا الاسم في ذاكرة المصريين. ويحسب يونس، فقد «اكتسب اسم عبد الناصر، أو ناصر، أو الريس، أهمية إيديولوجية خاصة، عكست بلا شك وضعه المركزي داخل النظام».(٢٩) فنتيجة لسنوات طويلة من الدعاية الهائلة التي ربطت بين اسم جمال عبد الناصر وكل ما هو جميل وإيجابي ورائع، اكتسب الاسم قوة ذاتية جعلته أشبه بأيقونة لصفات نبيلة مثل الاستقلال والكرامة والنصر. وبذلك، اكتسب اسم عبد الناصر قوة أسطورية، كان مجرد النطق به كفيلاً باستحضارها. وغدت ذاكرة معظم المصريين في ذلك الوقت مشحونة بدلالاته القابلة للاستدعاء والتكثيف في أية لحظة.

لقد صيغت الفقرة التالية لإعلان تولية زكريا محيي الدين – وهي أطول فقرات البيان – لتستدعي هذه الدلالات تحت غطاء ما أسماه عبد الناصر «إنجازات جيل الثورة»؛ الذي:

> حقق جلاء الاستعمار البريطاني، وحقق استقلال مصر، وحدد شخصيتها العربية، وحارب سياسة مناطق النفوذ في العالم العربي، وقاد الثورة الاجتماعية، وأحدث تحولاً عميقاً في الواقع المصري أكد تحقيق سيطرة الشعب على موارد ثروته وعلى ناتج العمل الوطني، واسترد قناة السويس، ووضع أسس الانطلاق الصناعي في مصر، وبنى السد العالي ليفرش الخضرة الخصبة على الصحراء المجدبة، ومد شبكات الكهرباء المحركة فوق وادي النيل الشمالي كله، وفجر موارد البترول بعد انتظار طويل. وأهم من ذلك وضع على قيادة العمل السياسي تحالف قوى الشعب العاملة؛ الذي هو المصدر الدائم لقيادات متجددة تحمل أعلام النضال الوطني والقومي مرحلة بعد مرحلة، وتبني الاشتراكية، وتحقق وتنتصر.

وهي إنجازات اعتادت آلة النظام الدعائية، على مدار سنوات طويلة، أن تقرنها برجل واحد هو جمال عبد الناصر.

لقد لجأ عبد الناصر إلى تقنية تصدير foregrounding الاسم في لحظة حاسمة من بيانه. فقد بدأ سلسلة تكرار اسمه بعد النطق مباشرة بجملة التنحي، ثم أعقب سلسلة اسمه بسلسلة إنجازاته. وينطوي ذلك على مناورة خطابية بارعة. ففي الوقت الذي دعا فيه الشعب إلى قبول قراره بالتنحي، شرع بواسطة تكرار اسمه في استثارة الدلالات الإيجابية التي يختزنها أفراد الشعب في ذاكرتهم عنه. وعزز هذه الاستثارة بحشد سلسلة طويلة من «الإنجازات» التي حققتها مصر في فترة حكمه، والتي نُسبت إليه واقترنت باسمه. وهكذا، كان عبد الناصر يدعو الشعب إلى قبول تنحيه بإحدى يديه، بينما يلوِّح بالخسارة الهائلة التي ستلحق بالشعب لو قبل دعوته بيده الأخرى.

العلامات غير اللغوية: من بلاغة النص إلى بلاغة الأداء

عادة ما يلجأ محللو الخطب السياسية إلى النسخ المكتوبة من هذه الخطب. وفي هذه الحالة يفقد التحليل قدراً كبيراً من إمكاناته وطاقته. فالنسخ المكتوبة من الخطب فقيرة علاماتياً مقارنة بالخطب الحيَّة. فنص الخطبة لا يتضمن إلا العلامات اللغوية المتمثِّلة فيما يقوله الخطيب، أما الخطبة الحيَّة، فهي بحر زاخر من العلامات اللغوية وغير اللغوية؛ فهي تضم كلمات الخطيب وصوته وحركاته وإشاراته وهيئته ومكانه من الجماهير ولحظات صمته وسكونه ونظرات عينيه وحضوره الجسدي. وهكذا، فإن فهم الكيفية التي تعمل بها الخطابة السياسية سوف يواجه عوائق حقيقية إذا أغفلت العلامات غير اللغوية التي لا يقل تأثيرها عن العلامات اللغوية في الخطبة.

يبدو إغفال دور العلامات غير اللغوية في إنجاز الأثر الكلي للخطاب السياسي باهظ الكُلفة في حالة «بيان التنحي». فقد كانت براعة عبد الناصر في أداء البيان لا تقل عن براعة هيكل في كتابة نصه. وقد ذكر معظم من أجريت مقابلات معهم بخصوص البيان أن نبرة صوت عبد الناصر – وبخاصة في مفتتح البيان وخاتمته – كانت بالغة التأثير في تعاطفهم معه. وبحسب تعبير أحدهم فإن «نبرة الحزن العميق التي تبدت في صوته كانت تدفع باتجاه واحد هو اتجاه المواساة». وسوف أتوقف في تحليلي دور العلامات غير اللغوية في إنتاج التأثير الكلي لـ«بيان التنحي» أمام بعض ملامح أداء عبد الناصر الصوتي وهيئته وتوزيع نظراته بين الورقة التي كان يقرأ منها وكاميرا التلفزيون.

نطق المفردات والتوازي النحوي: إيقاعي الحكي والشجن

أول ما يلفت الانتباه في أداء عبد الناصر الصوتي هو الإيقاع الخافت الذي بدأ به البيان. لقد اشتُهر عبد الناصر في أدائه خطبه في السياقات العادية بصوت جهوري مرتفع، لكن صوته في عبارات البيان الافتتاحية فيه خفوت وعمق، يتناسب مع «حالة البوح» التي جعلها إطاراً للبيان. فالبوح يناسبه النبر الخافت، والإيقاع الهادئ البطيء. ولعل هذا يُفسِّر طول مساحات الصمت في العبارات الافتتاحية التي يُحدِّد فيها طبيعة بيانه بأنه مصارحة، ويعترف فيها بوقوع النكسة، وذلك مقارنة بمساحات الصمت في العبارات التالية التي يقوم فيها بتتبع «خط سير الأحداث». فالعبارات الافتتاحية تكونت من ١٠٩ كلمة تبدأ من قوله «أيها الأخوة»، حتى قوله «نتتبع التطورات وخط سيرها في وصولها إلى ما وصلت إليه». وقد استغرق نطقها مدىً زمنياً قدره ١٠٧ ثانية، بما يقارب ثانية واحدة لكل كلمة.

على خلاف ذلك، شهدت العبارات التي تناولت تطور الأحداث تغيُّراً في نبرة عبد الناصر، إذ تراجع الإيقاع الهادئ البطيء الذي ميَّز العبارات الافتتاحية، واكتسب صوته ثقةً أكبر، وأصبح أكثر جهورية وأقل خفوتاً. تبدأ هذه العبارات بقوله «إننا نعرف جميعاً كيف بدأت الأزمة»، وتنتهي عند قوله «وأمامنا الآن عدة مهام عاجلة»، وتتكون من ٨٧٩ كلمة استغرق نطقها ٤٥٥ ثانية، وذلك بما يقارب نصف ثانية لكل كلمة.

يبدو الفرق الدال إحصائياً بين المدى الزمني الذي استغرقه نطق الكلمة في العبارات الافتتاحية والمدى الزمني الذي استغرقه نطق الكلمة في العبارات التي تسرد جزءاً من تاريخ الصراع فرقاً بين طريقتين في الأداء شهدهما البيان. الطريقة الأولى كان صوت عبد الناصر فيها بطيئاً وإيقاع كلامه هادئاً خافتاً. وهو ما ينسجم مع حالة قائد يوشك أن يتحدث عن هزيمة، وما يستتبع ذلك من هيمنة نبرات الحزن والأسى والشجن، وهي جميعاً تقود إلى إطالة المدى الزمني الذي يستغرقه نطق الكلمات وزيادة الفواصل الصامتة بين أجزاء الجمل، إلى حد بدا فيه عبد الناصر – وبخاصة وهو يتحدث عن النكسة لأول مرة – كمن يُعاني لكي تخرج الكلمات من فمه.

إضافة إلى ذلك، أثَّرت ظاهرة صوتية أخرى في إطالة المدى الزمني لنطق الكلمات؛ هي ظاهرة التوازي النحوي. لقد صيغتْ العبارات الافتتاحية من البيان صياغةً بلاغيةً بارعة بهدف إنتاج إيقاع صوتي مهدهد للنفوس. وقد تحقق هذا الإيقاع من خلال مجموعة من التَّوازيات النحوية. وذلك كما يتجلى في الشكل الآتي:

لقد تعودنا معاً

(١) في أوقات النصر
(٢) وفي أوقات المحنة،
(٣) في الساعات الحلوة
(٤) وفي الساعات المرة؛

(١) أن نجلس ..
(٢) وأن نتحدث ..
(٣) وأن نتصارح ..

(١) مهما كانت الظروف عصيبة،
(٢) ومهما كان الضوء خافتاً.

فالعبارة الافتتاحية الأولى تتشكل بأكملها من سلسلة من التوازيات الصوتية النحوية التي تتكرر فيها ثلاث بنيات نحوية ثابتة أربع مرات وثلاث مرات ومرتين. تتكون البنية الأولى من شبه جملة (حرف جر [في] + اسم مجرور [أوقات، الساعات] + مضاف إليه [النصر، المحنة] أو نعت للاسم المجرور [الحلوة، المرة]). أما البنية الثانية فتتكون من جملة فعلية مصدرية (أن + فعل مضارع [نجلس، نتحدث، نتصارح] + فاعل مستتر تقديره نحن). في حين تتكون البنية الثالثة من جملة فعلية شرطية (مهما + كان + اسمها [الظروف، الضوء] + خبرها [عصيبة، خافتاً]). ويزداد التناسق الإيقاعي لهذه التوازيات النحوية بفعل الجناس التام الناتج عن تكرار مفردات «الأوقات»، «الساعات»، «مهما»، «كان»، والجناس الناقص كما في مفردات «المحنة»، «الحلوة»، «المرة». وربما لم يكن من قبيل المصادفة – إضافةً إلى ذلك – أن المقاطع الأربعة التي تشكل البنية النحوية الأولى جاءت موزونة على بحر المتدارَك. فإذا حذفنا الواو التي تربط بين هذه المقاطع، نصبح أمام سلسلة متوالية من تفعيلة فَعْلُن. وبهذه الظواهر الصوتية المتعاضدة تكاد تتحول افتتاحية البيان إلى مطلع قصيدة جنائزية.

على خلاف ذلك، لم ترد مثل هذه الظواهر الصوتية في العبارات التالية التي اختصت بتتبع خط سير الأحداث، والتي استرد خلالها صوت عبد الناصر إيقاعه شبه العادي، وتلاشت إلى حد كبير نبرة الحزن التي طبعت صوته في مفتتح البيان. وتوازى تزايد سرعة نطقه الكلمات مع تصاعد في نبرة الثقة في صوته، وصلت إلى ذروتها حين كان يتحدث عما

يجب عمله لتجاوز النكسة. وبذلك أصبحنا أمام طريقة أخرى في الأداء الصوتي تقترب من أدائه الطبيعي في غير أوقات الهزيمة.

لغة الحروف ولغة الجسد: بلاغة النصر وبلاغة الهزيمة

تمتع عبد الناصر بقدرات متميزة على التواصل مع الجماهير. فقد استطاع بصوته العميق وحضوره الجسدي الطاغي ونظراته التي تنتقل بسلاسة من جانب إلى آخر وتوظيفه المتقن لتعبيرات الوجه والإشارات الحركية أن يمتلك قدرة كبيرة على التأثير في الآخرين. ويمكن أن نضيف إلى ذلك تمتعه بمهارات بلاغية جيدة؛ وبخاصة قدرته على مد الجسور مع الجمهور بواسطة استخدام تنويعات من ضمائر الخطاب والتكلم، ولمحات من الفكاهة والسخرية، والاستناد إلى معجم من مفردات الحياة اليومية، وبراعته في الحكي. ولعل العناصر السابقة - بالإضافة إلى توجهات سياساته المعلنة التي تماست مع أحلام كثير من المصريين والعرب وطموحاتهم، والدعاية الهائلة التي جعلت منه أسطورة تسير على قدمين - شاركت جميعاً في تشكيل ما أصبح يُعرف بـ«كاريزما» عبد الناصر التي تعني بشكل مبسط قدرته الاستثنائية على التأثير في الآخرين.

كان من الطبيعي أن تتأثر هذه القدرة الاستثنائية على التأثير في الآخرين بواقع هزيمة بعثرت أحلام النصر الموعود؛ وأحدثتْ شرخاً كبيراً في مصداقية «الزعيم». إضافة إلى ذلك، فإن إلقاء البيان أمام شاشات التلفزيون ألزم عبد الناصر - الذي اعتاد أن يخطب واقفاً - بأن يخطب جالساً خلف مكتب. وهو ما قلل من تأثير حضوره الجسدي، كما قلل من قدرته على توظيف حركات يديه وإشاراتهما؛ لأن كاميرا التلفزيون اقتصرت على تقديم ثلثي نصفه الأعلى، ولم تُظهر اليدين في كادر الصورة. كما دفعت حساسية الموقف عبد الناصر إلى الالتزام بالنص المكتوب، دون لجوء إلى ما اعتاد عليه - في خطبه السابقة على النكسة والتالية لها - من مزج بين الارتجال والقراءة من النص المكتوب. وقد حرمه التزامه الحرفي بالنص المكتوب من القدرة على الإفادة من التواصل البصري الدائم مع الجماهير التي تنظر إلى وجهه عبر شاشات التلفزيون. فقد كانت عيناه تتحركان حركةً بندولية شبه بطيئة من الورق الذي يقرأ منه إلى كاميرا التلفزيون.

على الرغم من أن العوامل السابقة ربما أدت إلى التقليل من قدرات عبد الناصر التواصلية، فإنها من المحتمل أن تكون قد أسهمت من زوايا أخرى في تدعيم تأثير البيان في الجماهير. فعلى سبيل المثال، كان اضطرار عبد الناصر إلى اعتماد النص المكتوب سبباً في

تقليل قدرات التواصل البصري، لكنه لعب دوراً كبيراً في تكريس التعاطف معه؛ لأنه أظهره في صورة قائد مطأطأ الرأس، تهرب عيناه من الكاميرا (والناس) لتغرق في فراغ مجهول خارج إطار كادر الصورة (الورقة التي يقرأ منها). وقد كانت فقرة التنحي على وجه الخصوص أكثر الفقرات التي طأطأ فيها عبد الناصر رأسه ليقرأ من الورقة غير الظاهرة، ربما يرجع ذلك إلى الصياغة النحوية المعقدة للفقرة، وجملها الاعتراضية المربكة؛ وهو ما يحول دون الاحتفاظ بها في الذاكرة قصيرة المدى. لكن النتيجة النهائية لهذه الطأطأة هي ظهور «القائد» في صورة «المهزوم». وهي حالة ما كان للمصريين أن يسمحوا بها لرئيس استطاع أن يربط شعورهم بوجودهم – بوصفهم شعباً – بيقينهم بوجوده – بوصفه قائداً.(٣٠)

لقد أسهمت طريقة أداء البيان في تحريك ملايين الجماهير لرفض التنحي، وتشكلت بلاغة جديدة أوجدتها الهزيمة، بلاغة تجلت في اختيار المفردات والتراكيب والمجازات، وفي الأداء الصوتي والحركي، واستهدفت توجيه إدراك جموع المصريين لهزيمة يونيو، ولعلاقة عبد الناصر بها، وللمستقبل الذي ينتظرهم في حال قبولهم تنحيه، والمستقبل المغاير الذي ينتظرهم في حال رفضهم هذا التنحي. وكانت محصلة هذه البلاغة أكبر مما كان يحلم به منتجوها، فقد أسهمت «بلاغة الهزيمة» في إضفاء شرعية جماهيرية جديدة على حكم عبد الناصر أتاحت له أن يعيد بناء بعض ما دمرته الهزيمة.

الهوامش

(١) ولد عبد الناصر في ١٨ يناير، ١٩١٨. التحق بالكلية الحربية عام ١٩٣٧، وشارك في حرب ١٩٤٨. كان العقل المدبر لحركة الضباط الأحرار التي استولت على الحكم في يوليو ١٩٥٢، وتولى منصب وزير الداخلية، ثم رئاسة الوزراء، وأخيراً رئاسة الجمهورية بعد صراع قصير على السلطة مع الرئيس الراحل محمد نجيب. وظل رئيساً للجمهورية حتى وفاته في سبتمبر ١٩٧٠. للمزيد من المعلومات عن حياة عبد الناصر والاطلاع على الإصدارين المقروء والمسموع من «بيان التنحي»، راجع: <http://www.nasser.org>. ويمكن الاطلاع على مقتطفات مرئية منه على <http://www.youtube.com>.

(٢) راجع:
Norman Fairclough, *Discourse and Social Change* (Cambridge, MA: Polity P, 1992), 71.

(٣) راجع:

Jan Blommaert and Chris Bulcaen, "Critical Discourse Analysis," *Annual Review of Anthropology* 29 (2000): 448-49.

(٤) أحد أهم الصحفيين في التاريخ العربي المعاصر. ولد في ٢٣ سبتمبر، ١٩٢٣، عمل محرراً بجريدة *The Egyptian Gazette*، ثم انتقل إلى دار أخبار اليوم عام ١٩٤٦. رأس تحرير مجلة **آخر ساعة**، كما رأس تحرير جريدة **أخبار اليوم**، قبل أن يرأس تحرير جريدة **الأهرام** في الفترة من ١٩٥٧ حتى ١٩٧٤.

(٥) حكى محمد حسنين هيكل الوقائع التفصيلية لكتابة «بيان التنحي» في ثلاث حلقات متواصلة من برنامج «مع هيكل»، الذي تبثه قناة الجزيرة القطرية، وذلك في مساءات الخميس من أيام ١٩و٢٥/٦/٢٠٠٩، و٢/٧/٢٠٠٩.

(٦) راجع تعريف الكتابة الخفية Ghost Writing في:

Theresa Enos, ed., *Encyclopedia of Rhetroic and Composition: From Ancient Times to the Information Age* (London: Routledge, 1996), 285.

(٧) راجع:

Mary E. Stuckey, *Getting into the Game: The Pre-Presidential Rhetoric of Ronald Reagan* (NY: Prager, 1989), 86.

(٨) المعلومات التي لدينا عن عملية كتابة «بيان التنحي» وصلتنا من خلال مصدر واحد هو الكاتب الذي لم يعد خفياً؛ أعني هيكل. ومن ثم، فإنه لا توجد أية وثائق تمكّننا من التحقق من صدق روايته لوقائع عملية كتابة البيان. وقد أشار هيكل نفسه أكثر من مرة إلى أن كثيراً من الأحداث التي يرويها عن واقعة كتابة البيان لم يشهدها أي شخص آخر بخلاف عبد الناصر نفسه. يمكن الرجوع إلى إشارات هيكل المتكررة لذلك في حلقات برنامج «مع هيكل».

(٩) محمد حسنين هيكل، **لمصر لا لعبد الناصر** (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧)، ص ٥٣. ومن اللافت استخدام هيكل تسمية «خطاب» بدلاً من «بيان».

(١٠) محمد حسنين هيكل، حلقة ٢٦/٥/٢٠٠٩ من برنامج «مع هيكل».

(١١) **المرجع السابق**.

(١٢) أتبنى في هذه المقالة صيغةً مخففةً من نظرية النسبية اللغوية Linguistic Relativism كما قدمها وورف في:

Benjamin Lee Whorf, *Language, Thought, and Reality* (NY: John Wiley, 1956).

(١٣) على سبيل المثال، تستخدم بعض المؤسسات الحكومية التي تمتلك آلية التسعير الجبري تعبيرات مثل «ترشيد» الأسعار و«تعديل» الأسعار و«تحريك» الأسعار للإشارة إلى قرارات «زيادة» الأسعار. ويشيع في الوقت ذاته أن تستخدم بعض الصحف أو الشخصيات المعارضة تعبير مثل «إشعال الأسعار» للإشارة إلى قرارات زيادة الأسعار نفسها. وتكشف

التعبيرات السابقة عن وجود ثلاث إمكانات يمكن لمستخدم اللغة الاختيار من بينها. الإمكان الأول استخدام تعبيرات مباشرة ودقيقة أقرب ما تكون إلى وصف جوهر الأشياء؛ كما هو الحال في تسمية زيادة الأسعار. وقد نحت آلان وبوريدج مصطلح الاستقامة اللفظية orthophemism للإشارة إلى هذا الاختيار. أما الإمكان الثاني، فيقوم فيه المتكلم باستخدام تعبيرات مخففة وملطفة أو غير مباشرة أو غامضة؛ كما هو الحال في تسمية ترشيد الأسعار. ويُستخدم مصطلح التلطيف اللفظي للإشارة إلى هذا الاختيار. أما الإمكان الثالث، فهو استخدام تعبيرات مبالِغة ومهوِّلة؛ كما هو الحال مع تسمية إشعال الأسعار. ويُستخدم مصطلح التهويل اللفظي Dysphemism للإشارة إلى هذا الاختيار. وعادة ما يكون التعبير المباشر تعبيراً حيادياً، بينما تُصاغ التعبيرات الملطفة أو المهولة صياغةً مجازية. لمعلومات تفصيلية عن طرق عمل التلطيف اللفظي راجع:

Keith Allan and Kate Burridge, *Forbidden Words: Taboo and the Censoring of Language* (Cambridge: Cambridge UP, 2006).

(١٤) تسمية «حرب الأيام الستة» هي التسمية الإسرائيلية المعتمَدة لما يُعرف في العالم العربي بالنكسة أو حرب يونيو. والأيام الستة هي الفترة من الخامس إلى العاشر من يونيو ١٩٦٧، وقد استطاعت إسرائيل خلالها أن تحتل الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية وشبه جزيرة سيناء كاملة وهضبة الجولان. وتتناص تسمية الأيام الستة مع بعض السرديات التوراتية الكبرى مثل سردية خلق العالم في مفتتح العهد القديم؛ التي تروي كيف خلق الله العالم في ستة أيام: «وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ.» انظر، **العهد القديم** (القاهرة: دار الكتاب المقدس، د. ت.)، ص ٥.

(١٥) يمكن الوقوف على الآثار العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لحرب ١٩٦٧ في كتاب لطفي الخولي، محرر، **حرب يونيو ١٩٦٧ بعد ٣٠ عاماً** (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٧).

(١٦) انظر **المعجم الوسيط**، حرره إبراهيم مصطفى وآخرون، ج٢ (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٦٠)، ص ٩٩٠.

(١٧) **المرجع السابق**، ص ٦١٠.

(١٨) من المؤكد أن اشتعال الحرب لم تكن «مفاجأة» لعبد الناصر، لأنه هو الذي نزع فتيلها بقراره سحب القوات الدولية وإغلاق مضيق العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية. كما أنه استطاع ببصيرته التنبؤ بالتوقيت المحتمل لنشوبها، وأبلغ المسئولين العسكريين بهذا الوقت. ولم يكن الجدال السائد في تلك الفترة يدور حول ما إذا كانت مصر «ستحارب» أم لا، بل حول ما إذا كانت ستقوم بتوجيه الضربة الأولى، أم تنتظر حتى تبدأ إسرائيل الضربة الأولى، ثم تقوم

بالرد. لمعلومات إضافية حول الظروف التي أحاطت بالحرب، وتنبؤ عبد الناصر بتوقيتها. راجع عبد العظيم رمضان، **تحطيم الآلهة: قصة حرب يونيو ١٩٦٧**، ج. ١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨)، ص ص ٦٠-٩١.

(١٩) «المسكوت عنه» مصطلح قديم يشير إلى أفكار أو موضوعات يتحرز المتكلم عن الخوض فيها مباشرة لما قد ينطوي عليه الخوض فيها من مخاطر. لمزيد من المعلومات عن هذا المصطلح، راجع جابر عصفور، «بلاغة المقموعين»، **ألِف**، العدد ١٢ (١٩٩٢)، ص ص ٦ -٤٩. أما مصطلح «مساحة الصمت» - أو المساحة البيضاء - فهو مصطلح يشيع في أدبيات تحليل الخطاب، ويكاد مفهومه يتطابق مع مفهوم المسكوت عنه. لتحليل مساحات الصمت في خطاب السادات السياسي، راجع عبد العليم محمد، **الخطاب الساداتي: تحليل الحقل الإيديولوجي للخطاب الساداتي** (القاهرة: كتاب الأهالي، ١٩٩٠)، ص ص ٢٣٩-٢٤٢.

(٢٠) راجع موقع **موسوعة القانون المشارك الجامعي**:
<http://www.ar.jurispedia.org/index.php/>.

(٢١) انظر **المعجم الوسيط**، ج٢، ص ٩٤٤.

(٢٢) لقد أجريت عدداً من المقابلات مع أشخاص مختلفي الثقافة ممن استمعوا إلى بيان ٩ يونيو في يوم إلقائه، وكان أحد الأسئلة الموجهة إليهم يتعلق بمدى فهمهم - في ذلك الوقت - لدلالة كلمة «أتنحى». وقد ذكر جميع المبحوثين أنهم فهموا أن الكلمة تعني «ترك الحكم» أو ما شابه إلا مبحوثة واحدة - كانت في ذلك الوقت طالبة في الفرقة الرابعة بأحد أقسام اللغات بكلية الآداب جامعة القاهرة - قالت إنها لم تعرف معنى كلمة «أتنحى»، وسألت والدها فور نطق عبارة التنحي عما يقصده عبد الناصر بالكلمة.

(٢٣) شريف يونس، **الزحف المقدس: مظاهرات التنحي وتشكل عبادة ناصر** (القاهرة: ميريت، ٢٠٠٥)، ص ١٨٣.

(٢٤) مفهوم الاستعارة كما أستخدمه أوسع من مفهومها في التراث البلاغي العربي القديم. فالمقالة تتبنى مفهوم الاستعارة كما استقر في اللغويات المعرفية على يد جورج لايكوف George Lakoff ومارك جونسون Mark Johnson وآخرين. والاستعارة عندهم هي الكلام أو التفكير في شيء ما بمفردات تنتمي إلى شيء آخر. وهي بذلك تضم الاستعارة بمعناها في البلاغة العربية القديمة التي يتم فيها نقل بعض صفات شيء ما إلى شيء آخر، إضافة إلى التشبيه الذي يتم فيه المقارنة بين بعض صفات شيء ما وصفات شيء آخر. لمزيد من الأفكار حول تأسيس نظري لكيفية الإفادة من نظرية الاستعارات المفهومية في تحليل خطاب سياسي عربي معاصر، راجع عماد عبد اللطيف، **أنا رب عائلة مصر: اللغة والسياسة والدين في خطب السادات** (القاهرة: دار الشروق، قيد النشر).

(٢٥) يحفل البيان بالكثير من المغالطات الحجاجية التي تستحق دراسة خاصة. كما يتضمَّن معلومات عسكرية مزيفة بهدف تقليل مسئولية القيادة العسكرية عن الهزيمة، وتخفيف شعور المصريين بوقعها. لحصر شامل بهذه المعلومات وتصويب لها، راجع عبد العظيم رمضان، ص ص ٢٣٦–٢٣٧.

(٢٦) يرجع ذلك إلى تولي زكريا محيي الدين منصب وزير الداخلية في وقت تزايدت فيه ظاهرة «زوار الفجر»، وتوليه رئاسة الوزارة أثناء تطبيق خطة تقشف اقتصادي في أوائل الستينيات أثَّرت بشدة على الظروف المعيشية لقطاعات ضخمة من المصريين. انظر: يونس، ص ١٨٩.

(٢٧) **المرجع السابق**، ص ٤١.

(٢٨) يمكن تأويل خروج ملايين المصريين من بيوتهم وسيرهم في الشوارع متظاهرين ضد التنحي بوصفه رفضاً رمزياً للهزيمة كما تتجلى في استعارة «الهزيمة توقف عن المسير»؛ فالمظاهرات في ذاتها شكل من أشكال السير أو «الزحف».

(٢٩) انظر: يونس، ص ١٢١.

(٣٠) يفسر يونس كيف استطاعت إدارة عبد الناصر زرع اعتقاد لدى المصريين بأن «الشعب يصبح شعباً، أو يتحقق كشعب فقط من خلال الرئيس، بل ويمكن القول إنه لا يوجد كشعب إلا به»، ص ١٥٥.